

جامعة القرويين

وأطوارها الزاهرة في التاريخ

ليس من ينكر ان العلم أساس كل حضارة ، وغير خاف أن المدنية الاسلامية التي يرجع اليها أعظم الفضل كانت قائمة اسسها على العلم وحده ، وقد حدثنا التاريخ عما كان للاولين من الشغف بالعلم والعناية بنشره في ممالك الاسلام . فبغداد وسمرقند ودمشق والقيروان والقاهرة وفارس وغرناطة وقرطبة وفاس كانت جميعها تحتوي على أهم المعاهد العلمية ، ومنها المدرسة النظامية ودور الحكمة والمدرسة المستنصرية في بغداد ، ومدرسة العادلية وغيرها في دمشق ، والصلاحية في القدس ، والجامع لاحمد بن طولون ومسجد عمرو والازهر ودار العلم للفاطميين في مصر ، وبقرطبة حاضرة الاندلس سبع وعشرون مدرسة ، كما كان بقرطبة كثير من الكليات والمدارس العلمية ، وفي أول الفتح كثرت المدارس العامرة بالترجمين الباحثين في انطاكية والرها ونصيبين وحران وجامع القيروان ، وبعد انقراضه تكونت كلية الزيتونة بتونس والقرويين بفاس وغيرها من مختلف المدارس العلمية الكثيرة التي كانت بالمغرب الاقصى وأدت واجبتها نحو العلم وتنوير العقول والمدارك وحمل لواء المدنية الاسلامية الغابرة .

أجل ! لقد شاطر المغرب في تكوين الحضارة وضرب فيها بسهم وافر فكان له في توجيه المدنية وتقديمها الاثر الفعال ، فقد كان عصر الادارسة زاهراً ببيت الدين والعلم في الاوساط البربرية المخضمة ، اذ بدأت تتكون النهضة العلمية الاولى منذ ايام المولى ادريس الثاني حيث قصده

من الاقطار الاسلامية النائية كثير من العلماء والادباء والفضلاء فكانت عمارة فاس لما أنشئت سنة ١٩٢ هـ . مقصورة على الوفود الاجانب مثل الوفد الذي أتى من قرطبة سنة ١٩١ هـ . بعد تنكيل الامير الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الفاتح وحصاره لاهلها ، ويقدر بثمانية آلاف عائلة معظمها من الفقهاء والعلماء وهاجر ايضاً من القيروان والعراق كثيرون فاصبحت فاس عبارة عن عدوتين تنسب الاولى للاندرلس والثانية للقيروان بحسب أكثرية من يسكنها . ولا ريب أنه لما أسست كلية القرويين ام البنين فاطمة الفهرية القيروانية سنة ٢٤٥ هـ . (٨٥٩ م) في عصر الامير يحيى الادريسي تكون فيها ميدان واسع النطاق للتقدم بالهضة العلمية وتنوير عقول الشعب ، ولبثت تتعاقب الحركة في تطور وازدهار بتوالي هجرة الاساتذة المتشعبين بالثقافة الاسلامية المتنوعة من كثير الاصقاع وباقبال الطلبة على الاذشاف من هذه الينابيع العذبة ، ومما قوى روح النهوض وكان له أثر عظيم في جامعتنا تلك الهجرة الاخيرة للقيروانيين حيث نار الاعراب على الصنهاجيين فتحول علمها الى فاس بمقتضى ما رحل اليها من العلماء والادباء والحكماء من مختلف الطبقات فخرت مدينة القيروان منذ ذلك العهد بعد ان كانت المركز العلمي الوحيد بافريقيا الشمالية ولم يبق لها أثر الا في بطون كتب التاريخ والتراجم . كما أن من أعظم الوفود الذين أتوا من الاندلس وقد فيه كثير من النبغاء والادباء والشعراء في القرن الرابع للهجرة لما اختلف بنو امية بعد موت محمد بن أبي عامر المنصور وابنه المظفر .

إن كلية القرويين أقدم جامعة كانت تزخر بالعلوم والمعارف لما توفر فيها من اقطاب العلماء المتباين الميول والاتجاهات والاذواق والمذاهب ، ومنار وهاج يضيء باشعته افريقية الشمالية بعد خراب القيروان واضطراب قرطبة .

فقد اتفق المؤرخون على أن فاس منذ أسسها الامام ادريس الثاني قبل بناء القرويين بنصف قرن وهي دار علم ، ولم يكن هناك مصدر للعلم أوسع وأغزر مادة من القرويين يصلح لهذه المهمة ، أضف الى ذلك أن التاريخ لم ينص في عصر من العصور على معهد آخر كان ميدان حركة علمية رئيسية منظمة بفاس كالقرويين منذ وجدت الى الآن .

على أن اهتمام الدول الاولى التي نشرت نفوذها على المغرب في القرن الرابع الهجري بهذا الجامع دون غيره من المساجد لم يكن عبثاً فقد أدخل عليه تحسينات فنية أحمد الزناتي بامر عبد الرحمن الناصر أمير الاندلس سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م) فأبدل المنارة بتشييد اخرى أسنى وأفضل بهجة وأدق هندسة تلك التي نشاهدها حتى الآن ، واعتنى به أيضاً فزاد فيه زيادات المظفر بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٨هـ . كما اعتنى به أبوه من قبل ، وما ذلك الا للمهمة العظيمة التي يؤديها للامم الاسلامية . فكل هذه البراهين ربما تكون كافية لتأييد نظريتنا فتعطيني غلة الباحث المتجرد عن جميع المؤثرات التي تضله عن محجة الصواب ، ولعل من يرى أن القرويين ما احدثت الامسجداً للصلاة ثم تحولت بعد عصور الى جامعة يجهل أن من تعاليم الاسلام نشر العلم ومحاربة الجهل وتوسيع دائرة المعرفة الانسانية بكل الوسائل ويشهد لذلك تاريخنا الحافل ، فليس لنا عصر صراع بين الدين والعلم كما للكنائس المسيحية التي حاربت العلم محاربة فعالة امتدت الى القرن السابع عشر للميلاد فكانت من أسباب تاخر اوروبا قرونًا ، وغني عن البيان أن الاسلام في كل الظروف والاحوال كان بجانب العلم يؤيده وينصره ومساجده ترحب بكل من يبت العلم أو يطلبه .

والواقع أن القرويين كانت مزدهرة في كل عصور المدنية الاسلامية وبالاخص في قرون توالي الدول العظمى

فقد كونت فيها كل دولة روح نشاط تناسب نزعاتها التجديدية ومبادئها السياسية فتتصل حلقات تقدمها من حين الى آخر بتجدد روح التقدم العلمي والنهوض السياسي والحق أنها وصلت الى حد كبير من العمارة والنضوج في عهد المرابطين فبدلوا كل ما في وسعهم لاصلاحها والقيام بما يحتاج اليه الطلبة من مرافق الحياة من ذلك مدرسة الصابرين التي بناها الفاتح الاعظم يوسف بن تاشفين فصارت تسمى في القرون الاخيرة بمدرسة أبي مدين ، وضريح ابن الغازي كان مدرسة في هذا العصر أو قبله ، وعلى أي حال فكلتا المدرستين ليس لهما أثر الآن ، وفي سنة ٥٣٣هـ (٣٨ - ١١٣٩م) زاد علي بن يوسف بن تاشفين في رحاب القرويين ونقش المحراب وجدار القبلة باختر النقوش الفنية والتزييق بالذهب الخالص واللازورد واصناف الالوان المتناسبة وكان لذلك منظر فني رائع جذاب يماثل المساجد الاندلسية العظيمة الى غير ذلك مما يطول بنا استقصاؤه وحصره ، وحين توجه الموحدون الى فاس بطرق التجديد والاصلاح المبنية على البساطة والتعشف التي كانت مخالفة لمبادئ دولة المرابطين ازيلت النقوش الذهبية وكل المناظر الفنية مخافة غضبهم وذلك سنة ٥٤٠هـ في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد .

بيد أن للموحدين ابادي بيضاء في اصلاح الجامعة وكثيراً من الاعمال العظيمة كالترميم الذي قام به أبو حفص ابن يوسف بن عبد المؤمن سنة ٦٠٠هـ . لما احترق قسم كبير من فاس فأصاب جانباً من القرويين . واذا ما تصفحنا عصر الدولة المرينية التي جددت حيوية النهوض بعد الموحدون وما تركت من المآثر الجليلة وجدناها تنبئ عن حضارة متفوقة في كل نواحي الحياة ، فقد أصلح القرويين يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٨٢هـ (٨٤ - ١٢٨٣م) وبني مدرسة الصفارين

سنة ٦٧٩ هـ (١٢٧٠ م) وأوقف عليها ثلاثة عشر حملاً من الكتب النفيسة القيمة من مختلف العلوم من تراث الاندلس التي بعث بها «سانجة» الطاغية ملك نصارى اشبيلية سنة ٦٨٤ بعد ما عقد الصلح بينهما، وليست هذه أول مدرسة استت بفاس كما يزعم بعض الكتاب الافرنسيين فقد سبقهم بذلك دولة المرابطين كما مر واقتدى يعقوب ابنه أبو سعيد من بعده فاقام مدرسة العطارين سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٢-٢٣ م) ومدرستا الاندلس والمصباحية أسسها أبو الحسن المريني وبنى خزانة القرويين أبو عنان وأوسع لطلبة العلم مجال البحث فملأها بالكتب النفيسة الدينية والفلسفية والطبية وغيرها وعين لها قبا يرعى نظامها وذلك سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) فكانت في غاية ما يكون من النظام والتنسيق فقد قدرت التتفة من الكتب التي بقيت فيها الى هذا العصر بـ ١٦٠٠ من المخطوطات من بينها الموطأ من عصر المهدي بن تومرت وتاريخ ابن خلدون بخط المؤلف و ٤٠٠ من المطبوعات وأغلب الكتب نقلها المولى عبد الحفيظ الى قصره بفاس، ومن أم مآثر ابي عنان مدرسته العظيمة التي تشهد باعتمائه الفائق بالثقافة والعلم.

ومجمل القول فان هذه نتف قليلة من بقية آثارهم الكثيرة التي شيدها في معظم بلاد المغرب، وكان قصدم الوحيد نشر العلم وتشجيع الطلبة وتنوير الافكار فزينوا القرويين بالفخر التحف الرفيعة والثريات التي جلبوها من الاندلس (١٣٣٠ م) وقد امتد الاعتناء بها الى دولة السعديين فارسل المنصور الذهبي الخصة العظيمة ومعها كرسي من المرمر وضمت عليه تلك التي تحت المنارة (٩٩٦ هـ) وفي المصور الاخيرة قام ملوك الدولة العلوية بواجبهم نحو القرويين فثبتوا أركانها العلمية ولقحوا عناصر نهوضها فقد كان يحضر الدروس ويتمهد النظام الجامعي من حين الى آخر

السلطان مولاي رشيد الذي زاد في حي الكلية مدرسة الشراطين ١٠٨١ هـ (١٦٦٤ م) التي كانت ضرورية لكثرة الطلبة الواردين من جميع الانحاء وسن لهم الزهة السنوية التي تكون منها مهرجان أدبي عظيم تنتج فيه القرائح انتاجاً رائعاً في مختلف ضروب الادب، وفي القرن الثاني عشر الهجري بنى السلطان مولاي محمد بن عبد الله مدرسة الجيسة كما أن المولى سليمان كان من دأبه زيارة القرويين وامتحان التلاميذ بنفسه.

وصفوة القول ان جامعتنا ظلت من أقدم العهود مركزاً رئيسياً للثقافة في افريقيا والغرب يهتدي بنور معارفها كل متعطر للمعارف، ومعج الطلبة من الاندلس ومصر وطرابلس وتونس والجزائر وانكلترا وفرنسا وايطاليا وغيرهم من الاصقاع النائية، متفرغين للدراسة يقطنون المدارس ويطعمون ويكسون سبع سنين من الاوقاف الخاصة بهم الى أن انفقها في الحروب آخر ملوك المرينيين ولم يبق منها الا النذر اليسير يصرف على الكلية الى الآن. وقد مدخول اجباس القرويين منذ بضع سنين بـ ٦٨٠،٠٠٠ فرنكا تتفق في اجور المدرسين مع بقية المصالح، على أن الفنون التي بقيت تدرس الى أواخر القرن التاسع عشر منها الفقه، والتفسير، والاصول، والبيان والمناهي، والبديع، والنحو، والمنطق، والعروض، واللغة، والتصريف، والتوحيد، والطب، والتصوف، والفلسفة، والادب، والجغرافية، والتاريخ، والجبر، والتنجيم، والهندسة بمؤلفات اعلام الملة وفطاحل علماء الاسلام زجي تفصيلها الى فرصة اخرى.

واستعراضنا الوجيز لاطوار القرويين في التاريخ يصور لنا بجلاء عصور النور التي وصل فيها المغرب الى أوج الحضارة والتمدن، فانجبت لنا الكلية رجالا عبقرين في كل نواحي

غزل العقاد

(تابع للصفحة ٧)

أما طريقة العقاد فغير طريقة المبالغة العقيمة التي يقتصر عليها القاصرون، فهو إذا أراد تشبيه السامع أو القارئ عمداً إلى المعاني وجسمها تجسيمياً يبرزها صوراً محسوسة تتراءى لعين الخيال تقاجته بصدمتها وتستحوذ عليه فلا ملجأ له منها حتى ترتكز فيه وتؤدي للفكر المعاني التي افترت فيها، وهذا هو سر الفن وروح الشعر، ومهما كانت هذه الصور الخيالية قريبة المأخذ معهودة الوقوع كانت أقرب إلى الصدق وأشد تأثيراً في النفس، مثال ذلك قوله من «ليلة نابغية»، وقد أراد تمثيل العذاب الذي يقاسيه في الليل الرهيب عند جفاء الحبيب وقد اخفق في السعي وراء التسلية والعزاء إذ العلل والأسباب التي يلتمسها ليسري بها عن قلبه تزيد ما به وكلما سد باباً من أبواب الألم الممض انفتح باب آخر قال:

فيا لك من قلب اذا ما تعلت قلوب الوري لم يغن عنه التعلل
تعلق الا بالحال رجاؤه وأقسم لا يلهو ولا يتأول
ضمنت كدفاع الضرام لومحبا أنت لئيران اللواعج هيكل
فيامن يراني والفؤاد كانه ذبيح تشظى في تراقيه منصل
ويامن يراني والظلام كانه اذا الليل اغضى قاتل يتزمل
ويامن يراني والنجوم كأنها نواظر من خوف الغياهب تقفل
كان الفضاء لم ير الشمس مرة ولم يسر فيه بدمه المتهلل
أبيت وفي ليلان ليل صباحه برجي وليل مدير الصبح مقبل
اضمد جرحي باليدن وفيها جراح يغشها النجيع المسلسل
واحل نفسي وهي ولهى طليحة اذا التام منها مقتل سال مقتل
اذا أدير الليل استرحت وأما يوكل لي الليل الذي هو أطول
فليقرأ القارئ هذا البيت:

فيامن يراني والفؤاد كانه ذبيح تشظى في تراقيه منصل
ثم فليتهخيل بعد - وهو مجبور على ذلك - صورة الذبيح الذي بلغت
القسوة بذابحه إلى أن تكسر المنصل في تراقيه وليزغ الفكر منها
ما شاء من معاني العنف والألم والارتعاش.

ومن هذا القبيل قوله:

المعرفة فتركوا تراثاً قيماً من المعلوم، وكثيره في قسم المخطوطات في بعض خزائن المغرب وأوربا مجهول لدى الجيل الحاضر ومنه ما اندثر بسبب الحروب والكوارث، وفي تراجم هؤلاء الرجال الذين تخرجوا من هذه الجامعة كثير من المجلدات الضخمة، فهي بحق أقدم كلية في العالم وعنصر قوي للحركة الفكرية، وركن من أركان المدينة الإسلامية الذي لم ينهد إلا بعد انحلال أوصال الحضارة، وسوف تسترجع مجدها الغابر إن تاب الشعب المغربي على نشر العلم والثقافة، فتقوم تهضمتنا وترتكز على اصول طبيعية يشاد عليها صرح المدينة والحضارة الحق.

أحمد بن احساين النجار

مصادر المقال

القرطاس - جذوة الاقتباس - زهرة الآس (طبعة الفريد بيل) - الاستقصا جزء ١ - تاريخ العرب في اصبانيا - العبر جزء ٤ - سلوة الانفاس - المعجب (الطبعة المصرية) - فاس وكتيبته Fès et son Université تأليف ج. دلفان - الذخيرة السنوية (طبعة كربونيل) - مغرب الغد Maroc de demain تأليف پول مارتني - زهرة الحادي - تحاف اعلام الناس.



في هذه الحققة

خير دواء للزكام والنزلة، فاطلبوا دائماً

«أقراص فالدة» الحقيقية